* الحديث 3 *

قال عبيد الله بن يحيى ـ رحمه الله ـ وَحَدَّثَنِي يَحْيَى عَنْ مَالِكٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهَا قَالَتْ: «إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَيُصَلِّي الصُّبْحَ فَيَنْصَرِفُ النِّسَاءُ مُتَلَفِّفَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ مَا يُعْرَفْنَ مِنْ الْغَلَسِ».

قال عبيد الله ـ رحمه الله ـ.

متى مات عبيد الله؟

ثمان وتسعين ومائتين (298هـ).

قال: حدّثني يحيى.

متى مات يحيى؟

سنة أربع وثلاثين ومائتين(234هـ).

قال: حدّثني مالك.

توفي سنة تسع وسبعين ومائة (179هـ).

عن يحيى بن سعيد.

يحيى بنُ سعيد بنِ قيس بنِ عمرو الأنصاري الخزرجي المدني.

أحد حُفّاظ الإسلام وأحد دواوين السنة، وأحد الجبال الكبار الحُفّاظ، شيخ المدينة في زمانه، وعالمها في زمانه، وتلميذ الفقهاء السبعة، وشيخ مالك، شيخ عالم المدينة.

وكان واسع الحفظ، كثير العلم، أُتِـيَ مرةً بكُتُب علمِه، بالكتب التي كتبت من إملاءاته، فأنكر كثرتها، ولم يكن له كتاب، أنكر كثرتها وجحد أن تكون الكتب كتبَه جميعا.

فقالوا له: نعرِضها عليك، فما عرفته أَجِزْه، وما لم تعرِفه أُرْدُدْه.

فلما عُرِضت عليه عرَف جميعَها.

وكان ـ رحمه الله ـ يُكثر من قوله في مجلس العلم: **اللّهمّ سلِّم، سلِّم**.

ومات ـ رحمة الله عليه ـ سنة ثلاث وأربعين ومائة (143هـ).

وقد قلت لكم: هو تلميذ الفقهاء السبعة، والفقهاء السبعة هؤلاء: فقهاءُ سبعة جمعوا علم المدينة في عصرهم، وهم كلهم تابعون، اجتمع في صدورهم العلم الذي كان متفرقا عند أهل المدينة.

وهؤلاء السبعة معروفون، إذا قيل: الفقهاء السبعة:

إذا قيـــل مــــن في العلـــم ســـبعة أبحـــر
روايـــــتهم في العلـــــم ليســـــت بخارجـــــة
فقـــــل هـــــم عبيـــــد الله عـــــروة قاســـــم
ســـــعيد أبـــــو بكـــــر ســـــليمان خارجـــــة

فقل هم عبيد الله: عبيد الله بنُ عبد الله بنِ عتبة بنِ مسعود.

عروة: بنُ الزبير، تقدّم.

قاسم: القاسم بن محمد بنِ أبي بكر الصدّيق.

سعيدٌ: سعيد بن المسيِّب.

أبو بكر: ابن محمد بنِ عمرو بنِ حزم.

سليمان: ابن يسار.

وخارجة: ابن زيد بن ثابت.

هؤلاء السبعة هم الفقهاء.

متى ما ذُكِر الفقهاء السبعة فينصرف إلى هؤلاء.

نعم.

عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهَا قَالَتْ «إِنْ كَانَ رَسُولُ الله ـ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَيُصَلِّي الصُّبْحَ فَيَنْصَرِفُ النِّسَاءُ مُتَلَفِّفَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ مَا يُعْرَفْنَ مِنَ الْغَلَسِ».

هي عمرة بنتُ عبد الرحمن بنِ سعد بنِ زُرارة، الأنصارية المدنية.

نشأت في حَجْر عائشة رضي الله عنها، ولذلك كانت كثيرة الرواية عنها.

وذُكِرت مرةً عند علي بن المديني، شيخ البخاري، ففخّم من أمرها وعظّم من شأنها، وقال: عَمْرة أحد الأثبات العلماء بعائشة، الثِّقاة.

وقد تقدّم لي لما ذكرت لكم أن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ بعث إلى عامله على المدينة أبي بكر بن حزم، قال له: انظر ما كان من حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو سُنّة ماضية أو حديث عَمرة فاكتبه ـ عَمرة هي هذه ـ فإني خِفتُ دروس العلم وذهابَ أهله.

وقال مرّةً عمر بن عبد العزيز متحدّثا عنها: ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة من عمرة.

وماتت ـ رحمها الله ـ سنة ست ومائة (106هـ).

نعم.

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهَا قَالَتْ «إِنْ كَانَ رَسُولُ الله ـ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَيُصَلِّي الصُّبْحَ فَيَنْصَرِفُ النِّسَاءُ مُتَلَفِّفَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ مَا يُعْرَفْنَ مِنَ الْغَلَسِ».

قال عائشة رضي الله عنها: (**إِنْ كَانَ رَسُولُ الله ـ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَيُصَلِّي الصُّبْحَ**).

(إنْ) هذه، قالوا: هي المخفّفة من الثقيلة، أصلها: (إنّ) ثم خُفِّفت بإزالة الثِّقَل عنها بإزالة التشديد فقيل: (إنْ).

واسمها يكون ضميرَ الشأن، وخبرُها يلزمه اللّام، هذه اللّام للتفرقة بين (إنْ) المخفّفة من الثقيلة و(إنْ) النافية.

قبل هذا، أُقدِّم لهذا الكلام بمقدّمة تُجلِّي لجمهور السامعين ما أريد.

تعرفون أنّ (إنّ) وأخواتها من النواسخ، ماذا تفعل؟

تنصب المبتدأ ويسمّى اسمَها، وترفع الخبر، طيب.

لكن، (إنّ) هذه قد تُخففها العرب، ما معنى تخفيفِها؟

تخفّفها بإزالة الثقل عنها، بإزالة الشدة، فعوض أن تقول: (إنّ) تقول: (إنْ).

إذا خفّفتها العرب ترتّب على ذلك أمور:

ماذا يترتّب على ذلك؟

يترتّب أنّها لا تعمل.

مثلا: تقول: إنّ زيدا قائم. فإذا خفّفت العرب قالت: إنْ زيدا قائم.

لكن إن خفّفت الأكثرُ في لغة العرب أنها تفقد عملها، لا تكون عاملة.

يعني تقول: إن زيد قائم.

لمّا خُفّفتْ أُهملتْ.

لكن، لمّا تقول: إنْ زيد قائم، العربي الذي يسمعك لا يدري ما تقول. لا يدري: هل تُثبتُ قيام زيد وتُؤكّده، فتكون (إنْ) هذه مخفّفة من الثقيلة، أو تنفي قيام زيد، لأن (إنْ) المخفّفة يأتي من معانيها كونها نافية، كأنّك تقول: ما زيد قائم.

إنْ زيد قائم، ما زيد قائم.

فالعربي الذي يسمع كلامك هذا لا يدري ما تقول.

تقول: السلام عليكم، إنْ زيد قائم.

ماذا تعني؟

أتثبت قيامه أم تنفيه؟

ليزول هذا الاشتباه وليتمحّض المعنى للإثبات تضاف اللاّم في الخبر، فيقال: إنْ زيد لقائم.

وهذه اللام إذا زيدت في الخبر تمحّضت (إنّ) للإثبات، فيظهر للعربي السامع أنّ (إنْ) هذه ليست نافية، ولكنّها المخفّفةُ من الثقيلة.

ولذلك اللاّم هذه تسمّى (لامَ الفارقة).

تفرق بين ماذا وماذا؟

تفرق بين (إنْ) التي هي مخفّفة من الثقيلة و(إنْ) التي للنفي.

لأن (إنْ) التي للنفي لا تدخل اللام في خبرها، إذا قلت: إنْ زيد قائم، معناه: ما زيد قائم.

وإذا قلت: إنْ زيد لقائم، معناه: إنّ زيدا قائم.

إذن هذا هو الأكثر في لغة العرب، إذا خُفّفت (إنّ) أُهمِلت، وإذا أُهمِلت لزم دخول اللام في خبرها ليرتفع الالتباس.

ومن ذلك قول الله تعالى: {وَإِن كُلٌّ لَّمَا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يس: 32]

{وَإِن كُلٌّ} خُفِّفت فأُهمِلت ودخلت اللام في خبرها، {لَّمَا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ}.

هذا الأكثر في لغة العرب.

معناه الأكثر، أن بعض العرب ربّما خفّفت وأعملت.

ومما نزل على هذه اللغة في القرآن العظيم قول ربنا سبحانه: (وَإِنْ كُلاًّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)[1].

{وَإِنْ كُلاًّ} خُفِّفت وأُعمِلتْ.

فإذا خُفِّفتْ وأُعمِلت حينئذ أتلزم اللام في خبرها ؟

لا تلزم.

لأنّ لا تشتبه عندنا حينئذ بـ(إنْ) النافية، لأنّ (إنْ) النافيةَ لا تعمل.

ذكر سيبويه في الكتاب قال: وحدّثنا من نثق به أنّه سمع من العرب من يقول: إنْ زيدا لمنطلق.

فماذا صنعوا؟

---

1 ـ لعل الدكتور يقصد قوله تعالى: {وَإِن كُلًّا لَّمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ} هود: 111 لأن {وَإِن كُلٌّ لَّمَا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ} [يس: 32] لم أجد من قرأها (وإن كُلاًّ).

أما قوله تعالى: {وَإِن كُلًّا لَّمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ}

فقرأ ابن كثير ونافع (وَإِنْ كُلًّا) بالتخفيف على أنهما أعملا (إنْ) مخففة كعملها مثقلة.

وقرأ ابن عامر بتشديد (إنَّ) على الأصل. وكذلك حمزة وحفص عن عاصم.

وقرأ أبو عمرو والكسائي كذلك إلا أنهما خففا الميم.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بتخفيف (إنْ) وتشديد الميم.

وهذه اللام لام القسم دخلت على (ما) التي للتوكيد. وقيل: هي لام الابتداء دخلت على معنى (ما)، وحكي عن العرب: إني لبحمد الله لصالح.

فأما من شددها ففيها خمسة أوجه:

أحدها: أنّ المعنى: لـمِمَّـا، فاجتمعت ثلاث ميمات، فحذفت واحدة ووقع الإدغام، قال الشاعر:

وإني لـمِمَّـا أُصدِرُ الأمرَ وَجهَهُ ... إذا هُوَ أُعْيا بالنَبيلِ مَصَادِرُه

والثاني: أنها بمعنى (إلا) كقول العرب: سألتك لما فعلت.

والثالث: أنها مخففة شددت للتأكيد، وهو قول المازني.

والرابع: أنها من " لممت الشيء " إذا جمعته، إلا أنها بنيت على (فعلى) فلم تصرف مثل تترى.

والخامس: أنّ الزهري قرأ (لـمًّا) بالتنوين بمعنى شديد. و(كلٌّ) معرفة؛ لأنّها في نية الإضافة. إعراب القرآن للأصبهاني (ص: 165)

خفّفوا وأعملوا، وهذا الذي ذكره ابن مالك بقوله:

وخُفِّفَـــــــت إنّ فقـــــلّ العمــــــل

....

ما معنى قلّ العملَ؟

يعني أنّ القليل في لغة العرب إعمالها على تخفيفها.

وخُفِّفَـــــــت إنّ فقـــــلّ العمــــــل

....

الكثير في لغة العرب ألاّ تعمل إذا خُفِّفت، والقليل أن تعمل إذا خُفِّفت.

وخُفِّفَـــــــت إنّ فقـــــلّ العمــــــل

وتلـــــزم الـــــلامُ إذا مـــــا تُهمَـــــل

تلزم اللام التي تسمى اللام الفارقة.

تفرق بين ماذا وماذا؟

بين (إنْ) النافية و(إنْ) المخفّفة من الثقيلة.

لماذا لا تكون اللام في خبر (إنْ) النافية؟

لماذا لا نقول: إنْ زيد لقائم وأنت تقصد النفي؟

لأن اللام - هذه التي تدخل على الخبر - لام للتوكيد، لتوكيد الإثبات، و(إنْ) النافية للنفي، ولا يمكن أن يدخل ما يؤكّد الإثبات في سياق ما يُنفى، لما يلزم عليه من التضادّ، هذا لا يكون في الكلام.

لكن، قال ابن مالك:

وربّـــــما اســـــتُغْنِيَ عنهـــــا...............

....

عن ماذا؟

عن اللام.

وربما استُغنيَ عن اللاّم مع (إنْ) المخفّفة من الثقيلة، لماذا؟

قال:

وربّـــــما اســـــتُغْنِيَ عنهـــــا إن بـــــدا

مـــــا نـــــاطقٌ أراده مُعْتَمِـــــدا

نحن نقول: تلزم اللام في الخبر لنفي الاشتباه، لرفع الالتباس.

أحيانا قد لا يكون الالتباس، ويظهر للمتكلم أنّ (إنْ) هذه لا يمكن أن تكون نافية، فحينئذ لا يلزم اللام في خبرها، لعدم وجود الالتباس.

يضربون مثلا لذلك بقول الطِّرِمَّاح بنِ حكيم:

أَنَـــا ابْـــنُ أُبَـــاةِ الضَّـــيْمِ مِـــنْ آلِ مَالِـــكٍ

وإنْ مالـــكٌ كانـــتْ كـــرامَ المعـــادنِ

الطِّرِمَّاح بنِ حكيم في هذا البيت، هذه القصيدة، يفتخر باعتزائه إلى قومه فيقول: أنا ابن أُباة الضَّيْم، الذين يأبون الضَّيْم، ولا يُبقُونه على أنفسهم.

أَنَـــا ابْـــنُ أُبَـــاةِ الضَّـــيْمِ مِـــنْ آلِ مَالِـــكٍ

وإنْ ....

مخففه هذه.

....

وإنْ مالـــكٌ كانـــتْ ....

ولم يقل: لكانت.

....

وإنْ مالـــكٌ كانـــتْ كـــرامَ المعـــادنِ

هذه (إنْ) هنا لا يحتمل أن تكون للنفي، لماذا؟

لأنه لو قلت: هي للنفي، ماذا يكون الكلام؟

وما مالكٌ كانتْ كرامَ المعادنِ

وكيف يفتخر بانتسابه إليهم وبعد ذلك ينفي كونه من معدِن كريم؟

هذا لا يمكن.

وبما أنه لا التباس هنا لم يُلحق اللام بخبر (إنْ).

لأنّ ظاهر، أنّ معناها: وإنّ مالكا كانت كرام المعادن.

إذا رجعنا إلى الحديث:

إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَيُصَلِّي الصُّبْحَ.

هذا الحديث، نجد أنّ (إنْ) هنا تحتمل أن تكون نافية وتحتمل أن تكون مخفّفة من الثقيلة، فلما كان هذا الالتباس وجب اقتران الخبر باللام فقيل: (**لَيُصَلِّي الصُّبْحَ**).

فهمتم أنّ حرف (إنْ) يأتي مرّة للنفي ويأتي مرّة للإثبات، فتكون (إنْ) هذه مخفّفة من الثقيلة.

(إنْ) في لغة العرب تأتي لمعان أُخر.

قد تقدم لي في مجلس معكم أني ذكرت أنّ الحروف قسمان، نوعان: حروف معان وحروف مبان:

حروف المباني، هذه هي التي تُركّب منها الكلمات، وهذه لا معنى لها، إذا قلت: زيد، فلا يقال لك: ما معنى الزاي؟ ولا يقال لك: ما معنى الياء؟ ولا يقال لك: ما معنى الدال؟ فهذه حروف مبان، تُبنى منها الكلمات، تُركّب منها.

وحروف معان، وقد مثّلت لكم في مجلس مضى بـ(إلى) بحروف الجر، هذه الحروف إذا قيل لك: ما (إلى)؟ تقول: حرف جر، هذا عمله، يجرّ، لكن ما معناه؟ (على) ما معناه؟ (من) ما معناه؟

(من لابتداء غاية وكإلى معنى وفي ما وعن و باء وعلى...)

عملها الجر، لكن لها معان.

(إنْ) هنا تأتي لمعان أيضا.

تأتي لأربعة معان في لغة العرب، ذكر ابن هشام في كتابه مغني اللبيب أنّ (إنْ) تأتي لأربعة معان: تأتي للنّفي، وتأتي مخفّفة من الثقيلة، وتأتي زائدة، وتأتي شرطية.

وهذه الأربعة هي التي جمعها الدّيْمني ـ رحمة الله عليه ـ في قوله:

إنْ شرطٌ أو تخفيـــــــف إنّ وتُـــــــزادْ
مـــن بعـــد مـــا والنّفـــي فيهـــا قـــد يُـــرادْ

إن شرطٌ: كما في قول الله تعالى: {وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا}[1] {وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ}[2] إن شرط.

إنْ شرطٌ أو تخفيف إنّ.

أو تخفيف إنّ: كما سبق، {وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}[3]، وإنّها.

إنْ شرطٌ أو تخفيف إنّ.

إذا كانت (إنْ) بعد ما فهي زائدة، كما في قول أبي ذُؤيب الهُذلي: لعمرك ما إن أبو مالك بواهٍ ولا بضعيف القوة.

لعمرك ما إن أبو مالك، يعني: ما أبو مالك بواهٍ ولا بضعيف القوة.

إنْ شرطٌ أو تخفيـــــــف إنّ وتُـــــــزادْ
مـــن بعـــد مـــا والنّفـــي فيهـــا قـــد يُـــرادْ

1 ـ الإسراء: 8

2 ـ الأنفال: 19

3 ـ البقرة: 143

{إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ} [الملك: 20] ما الكافرون إلى في غرور.

نعم.

إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَيُصَلِّي الصُّبْحَ فَيَنْصَرِفُ النِّسَاءُ[1] مُتَلَفِّفَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ.

هكذا عندكم؟

عندكم: (**مُتَلَفِّعَاتٍ**).

رواية يحيى التي ندرس: بفاءين، (**متلفِّفاتٍ**)، هذه رواية يحيى، هكذا قال ابن عبد البر وغيره.

رواية يحيى: (متلفِّفاتٍ). وأكثر رواة الموطأ يروونه: (**مُتَلَفِّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ بِمُرُوطِهِنَّ**).

المعنى قريب، متلفّفات ومتلفّعات.

التلفّع: هو أن تأخذ المرأة الثوب فتُجلِّل نفسها به، تغطّي، تلقيه على رأسها وتغطّي رأسها وجسدها به، فتشتمل به، هذا التلفّع.

فلا يكون التلفّع إلا مع تغطية الرأس.

التلفّف هو التلفّع لكن من غير اشتراط تغطية الرّأس.

قد يكون التلفّف بتغطية الرأس، وقد يكون من غير تغطية للرأس.

(**مُتَلَفِّفَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ**)

مروط: جمع مِرْط، والمِرْط هو كِساء يكون من كتّان، ويكون من صوف، ويكون من خَزّ، الخزّ هذا نوع من أنواع الحرير، وغالبا يكون أخضر، ويستعمله النّساء، يتّزرن به، ولا يلبَس المِرْطَ إلاّ النّساء.

نعم.

فَيَنْصَرِفُ النِّسَاءُ مُتَلَفِّفَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ مَا يُعْرَفْنَ مِنَ الْغَلَسِ».

(**مَا يُعْرَفْنَ مِنَ الْغَلَسِ**)

ما يُعْرَفن أهنّ رجال أم نساء؟ هذا احتمال.

(**ما يُعْرفن**)، أي ما يعرفن هل هنّ رجال أم نساء.

أم لا يعرفن، لا تعرف أعيانهنّ وإن عُرفن من هيئتهن أنهن نساء. لا تُعرف أعيانهنّ. احتمال.

قولها: (**مَا يُعْرَفْنَ مِنَ الْغَلَسِ**) يحتمل هذا ويحتمل ذاك.

وقولها: (**مَا يُعْرَفْنَ مِنَ الْغَلَسِ**)، الغلَس هو ظُلمة آخر الليل إذا خالطها ضياء الصبح، هذا الوقت يسمى الغلس.

وقولها: (**مَا يُعْرَفْنَ مِنَ الْغَلَسِ**)، (مِن) هنا تحتمل أن تكون ابتداء غاية وتحتمل أن تكون سببية.

على القول أنها سببية هذا يعطيك أنّ النساء كنّ سافرات الوجوه، كنّ مكشوفات الوجوه، ولم يكنّ متنقّبات، لأنهنّ لو كنّ متنقبات لكان الذي يمنع معرفتهنّ النقاب، ولم يكن الّذي يمنع معرفتهنّ الغلس، وقد قالت: (**مَا يُعْرَفْنَ مِنَ الْغَلَسِ**)، فنسبت، يعني المانع هو الغلس.

هذا الحديث فيه من الفوائد...[2]

---

1 ـ قال بعض من فسر هذا الحديث إن فيه دليلا على مبادرة خروج النساء من المسجد لئلا يزاحمن الرجال قال القاضي أبو الوليد ـ رضي الله عنه ـ والذي يقتضيه عندي ظاهر اللفظ اتصال خروجهن بانقضاء الصلاة لقولها ليصلي الصبح فينصرف النساء والفاء في العطف تقتضي التعقيب ويصح أن يبادرن بالخروج لما ذكر هذا المفسر من أن يسلمن من مزاحمة الرجال ويصح أن يفعلن ذلك اغتناما لستر الظلام لهن ويصح أن يفعلن ذلك مبادرة إلى مراعاة بيوتهن وفعل ما يلزمهن فعله من أمور دنياهن. المنتقى شرح الموطأ (١/ ٩)

2 ـ هناك قص للكلام في هذا الموضع.

الغرض من ذلك أن تُؤمَن الفتنة عليهنّ والفتنة بهنّ[1].

والمسألة الأخرى أنّ النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ كان يصلي الصبح في أول وقته.

«إِنْ كَانَ رَسُولُ الله ـ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَيُصَلِّي الصُّبْحَ فَيَنْصَرِفُ النِّسَاءُ مُتَلَفِّفاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ مَا يُعْرَفْنَ مِنَ الْغَلَسِ».

معناه: أنه بعد أن انتهى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صلاته ما يُعرفن من الغلس، فقد كان إذن على هذا يصلي الصبح في أول الوقت.

وهذا موضع خلاف بين الفقهاء: أيها أفضل: أن يُصلَّى الصبح بغلس أو يُصلَّى في الإسفار؟

الجمهور،المالكية والشافعية والحنابلة يرون أنّ الأفضل والأعظمَ أجرا أن يُصلَّى الصبح في غلس.

ويستدلّون على ذلك بحديث الباب.

وموضع الشاهد فيه: قولها: (كان)، و(كان) تفيد الاستمرار، يعني: هذا كان الغالبَ من فعل رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ.

ويدلّ لذلك أيضا ما رواه أبو داود في سننه عن أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه ـ في حديثه الطويل، وفيه: أنه قال: **وصلّى مرّة الصّبح بغلس، وصلى مرة أخرى فأسفر، ثم كان صلاتُه بعدُ التغليسَ حتّى مات ولم يَعُد إلى أن يُسفِر.**

فهذا يعطي دَلالة ظاهرة على أنّ الأكثر من فعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التغليسُ بالصبح، لا الإسفار بها.

ويستدلّون على ذلك أيضا بما رواه ابن حِبّان وأبو يعلى وغيرهما عن سُمَيّ بنِ مُغيث ـ رحمه الله ـ قال: **صلّى بنا عبد الله بن الزّبير الصّبح بغلس وإلى جنبي عبد الله بن عمر، فلما سلّم التفتّ إلى ابن عمر فقلت: يا أبا عبد الرحمن، ما هذه الصّلاة؟ فقال ابن عمر: هذه كانت صلاتَنا مع رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وأبي بكر وعمر، فلمّا قُتِل عمر أسفر بها عثمان.**

ذهب الأحناف ـ رحمهم الله ـ إلى أنّ الأفضل الإسفار بصلاة الصّبح.

واستدلّوا على ذلك بما رواه التّرمذي والنّسائي وابن ماجه أن رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قال: **«أسفِروا بالصبح، فإنه أعظم للأجر».**

وهذا الحديث يحمله الجمهور على أنّ (أسفِروا) هنا معناه: بيّنوا الصبح، تأكّدوا من دخول الصّبح ولا تُصلّوا وأنتم شاكّون أدخل أم لم يدخل؟[2]

ومنهم من يقول: أسفروا بالصّبح في وقت الغيم، وفي غير ذلك: التّغليس[3].

1 ـ في الحديث جواز خروج النساء إلى المساجد لشهود الصلاة في الليل.
وأخذ منه جوازه نهارا بالأولى، لأن الليل مظنة الريبة أكثر، ومحل ذلك إذا لم يخش عليهن أو بهن فتنة. شرح الزرقاني على الموطأ (1/ 82)

2 ـ حمله الشافعي وأحمد وإسحاق على ذلك.

3 ـ وحمله آخرون على الليالي المقمرة، فإن الصبح لا يتبين فيها.
وحمله الطحاوي على أن المراد الأمر بتطويل القراءة فيها حتى يخرج من الصلاة مسفرا. شرح الزرقاني على الموطأ (1/ 81)
وفي رواية أخرى لأحمد ـ على ما ذكره الشعراني ـ أن الاعتبار بحال المصلين، إن شق عليهم التغليس كان الإسفار أفضل، وإن اجتمعوا كان التغليس أفضل. أوجز المسالك 1/ 273

والذي يظهر هو قول الجمهور، وأنّ الأفضل التّغليس بصلاة الصّبح[1].

وممّا يزيد ذلك رجحانا ما رواه أحمد في مسنده عن أم فروة ـ رضي الله عنها ـ أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ سُئِل عن أفضل الأعمال، فقال: **«الصّلاة لأوّل وقتها»**.

ثُمّ أقول: سمعتم النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يقول في الحديث الأوّل، الحديث السّابق، **«ما بين هذين وقت»**.

معناه: أنّ ما لم يكن بين الوقتين، وما لم يدخل في الوقتين فليس بوقت.

وسمعتم أنّ العلماء اختلفوا: آ الأفضل في صلاة الصبح التغليس أم الإسفار؟

فما الحيلة فيمن لا يصلّي الصبح لا في غلس ولا في إسفار؟ ما الحيلة في مثل هذا؟

ولا يصلّيها حتى يقوم لوظيفته، حين يأتي موعد القيام للوظيفة، فحينئذ يقول: قَوْمةٌ واحدة، نقوم نصلي ونتوضأ ونفطر ثم ننصرف؟

ما الحيلة في هذا؟

وهذا شيء خطِر، ولاسيما لمن داوم عليه.

تعمُّد إخراج الصّلاة عن وقتها هذا شيء خطِر.

1 ـ في انصراف النساء من صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح وهن لا يعرفن من الغلس دليل على أن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الصبح لم تكن بالسور الطوال جدا لأنه لو كان ذلك كذلك لم ينصرف إلا مع الإسفار.
وقد أجمع العلماء على أن لا توقيت في القراءة في الصلوات الخمس إلا أنهم يستحبون أن يكون الصبح والظهر أطول قراءة من غيرهما. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (23/ 390)

وقد قال ربنا: {حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ}[2].

وقال ربنا في صفة أولئك الذين يرثون الفردوس: {وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ}[3].

وصلاة الصبح لها مزية خاصة.

هذا شأن الصلوات جميعا أن يُحافَظ عليها.

وصلاة الصبح لها مزية خاصة.

ولذلك جاء في فضلها ما لم يأت في فضل غيرها:

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«من صلّى البَرْدَيْن دخل الجنّة»**.

البَرْدان: الصبح والعصر، سُمِّيا البردان إمّا لأنها يصلَّيان في وقت برْد، أو لأنهما يُصلَّيان في طرفَيِ النهار.

«من صلّى البَرْدَيْن دخل الجنّة».

صلاهما متى؟

في وقتهما.

وروى مسلم عن أبي زُهَيْر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يقول: **«لن يلِجَ النّارَ أحدٌ صلّى قبل طلوع الشّمس وصلّى قبل غروبها»**.

صلّى قبل طلوع الشّمس: الصبح. يكون هذا سببا من منعه ولوج النّار.

وروى الطّبراني في الكبير عن أبي مالك الأشجعيّ ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **«من صلّى الصّبح فهو في ذمّة الله، وحسابه على الله»**.

2 ـ البقرة: 238

3 ـ المؤمنون: 9

صلى الصبح في وقتها.

فهذا شيء خطِر ينبغي أن ينتبه له الناس.

وقد تحدّث الفقهاء عن صلاة الخوف، ما معنى صلاة الخوف؟

الصّلاة التي يدركك وقتها وأنت في جهاد، وأنت في قتال.

يخبرني أحدهم له أخ ، فلاّح في البادية، يعيش فيها، وأخوه لا يصلي فقال له: يا أخي يجب أن تصلي، فقال له:متى أصلي؟ أنت لا ترى حالنا؟ من حشٍّ، ومن سقي البهائم، ومن زرع، متى أصلي؟

الفقهاء يتحدّثون عن صلاة الخوف، وأنت في قتال، ولا تترك الصّلاة، تتحدّث عن صلاة المريض المضطجع الذي لا يستطيع التململ ولا التقلّب، ولا يتركها.

وأنت إذا سئلت، ماذا تقول؟

إذا سألك ربّك لماذا لم تصل الصّلاة في وقتها؟ تقول: كنت نائما؟

فإذا فعلت مثل هذا فأعِدَّ لربّك جوابا.

نعم.

هذا الحديث أخرجه الأئمة:

أخرجه البخاري عن عبد الله بن يوسف التِنيسي، وأخرجه عن عبد الله بن مسلمة القَعنبي عن مالك بهذا الإسناد.

وأخرجه مسلم عن مَعْن بن عيسى عن مالك بهذا الإسناد.

نعم.